الرسول ﷺ يذهب إلى الطائف

بدا الآن أنه لا أحد في مكة بات يصغي إلى الرسول ﷺ، وقد جعله ذلك حزينًا، وأحس أن سوقه كاسدة، فقرر أن يتوجه إلى مكان آخر كي يبشر برسالته. واختار الطائف، وهي مدينة صغيرة تبعد ٦٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة، واشتهرت بالفاكهة ومزروعاتها. وكان قرار الرسول ﷺ جاريًا على سُنة الأنبياء جميعًا. فقد توجّه موسى عليه السلام إلى فرعون مرة، وإلى بني إسرائيل مرة، كما ذهب إلى مدين، وكذلك حدث للمسيح عليه السلام، فقد دعا أهل الجليل ثم عبر الأردن ودعا أهل أورشليم. وكذلك لما وجد الرسول ﷺ أن أهل مكة يسيئون المعاملة ولا يستمعون، تحوّل إلى الطائف. ولم تكن الطائف تقل عن مكة في الشرْك بالله، ولم تكن الأوثان المنصوبة في الكعبة هي وحدها المعبودة ولا وحدها المهمّة في بلاد العرب. ففي الطائف كان هناك صنم هام هو "اللات"، وبسببه كانت الطائف مركزًا للحجيج. وكانت أواصر الدم تربط بين أهل الطائف وأهل مكة، كما كان أهل مكة يملكون أغلب البساتين التي بين مكة والطائف. وعند وصول الرسول ﷺ إلى الطائف زاره سادة المدينة عدة زيارات، ولكن لم يَبد أن أحدهم كان مستعدًا لقبول رسالته، والعامة من الناس اتبعوا رؤساءهم ولم يعيروا كلامه أيّ اهتمام. ولم يكن ذلك غريبًا، فالناس المنغمسون في الأمور الدنيوية يرون مثل هذه الرسالة دائمًا على أنها نوع من التدخل في حياتهم، بل يعتبرونها إهانة لهم. ولما كانت الدعوة تبدو لهم بلا سند مرئي يدعمها، كعدد الأتباع وقوة السلاح، كانوا يشعرون أيضًا أن بإمكانهم أن يرفضوها بلا

مبالاة بل وبازدراء. ولم يكن الرسول ﷺ استثناء من ذلك. وقد سبقته أخباره إليهم، وها هو الآن قد أتى إليهم بلا سلاح ولا أتباع، فرْدٌ وحيدٌ ليس معه أحد سوى رفيق واحد هو زيد. واعتبر أهل الطائف أن الرسول ﷺ مصدر للضيق يجب وضع نهاية لـــه من أجل إرضاء سادتهم ورؤسائهم. فسلطوا عليه سفهاءهم والصبية المشردين في الطرقات، فحصبوه بالحجارة وطردوه خارج المدينة. وقد جُرح زيد وكان الرسول ﷺ ينْزف بغزارة، ولكن الملاحقة استمرت حتى صار الرسول ﷺ وزيد على بُعد أميال خارج الطائف. وكان الرسول ﷺ محزونًا وموجوعًا ومغتمًّا عندما جاءه مَلَك وسأله إن كان يريده أن يهلك أولئك الذين عاملوه بهذه القسوة البشعة، فرفض الرسول ﷺ وقال: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" (البخاري، كتاب بدء الخلق).

وتوقف الرسول ﷺ بعد أن أنهكه التعب، ونال منه الغم، واعتصره الألم، في كَرْمٍ يملكه رجلان من أهل مكة تصادف وجودهما في ذلك اليوم. ورغم أنهما كانا من بين الذين يضطهدون المسلمين في مكة، إلا أنهما كانا متعاطفين في تلك المناسبة. فهل كان السبب أن أهل الطائف قد أساءوا معاملة رجل من مكة، أم كان السبب شرارة من العطف الإنساني توهجت فجأة في قلبيهما؟ لقد أرسلا إلى الرسول ﷺ طبقًا مليئًا بالعنب مع مملوك نصراني يسمى "عدّاسا" من مدينة نينوَى. وقدّم عدّاس الطبق إلى الرسول ﷺ وصاحبه بينما أخذ يرنو إليهما بعينيه متفكرا، ثم اشتد فضوله كثيرًا عندما سمع الرسول ﷺ يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم". وانتعشت ذاكرته المسيحية، وأحسّ أنه في حضرة أحد أنبياء العبرانيين. وسأله الرسول ﷺ إلى أين ينتمي، فقال عداس إنه من أهل نينوى، وحينئذ قال الرسول ﷺ: "نينوَى، بلدة الرجل الصالح يونس بن متّى. ذاك أخي، فهو نبيّ مثلي". وقد أخبر الرسول ﷺ عدّاسا عن رسالته، فتأثر عدّاس كثيرًا بكلامه وآمن به في الحال، وعانق الرسول ﷺ والدموع تتقاطر من عينيه، وراح يقبّل رأسه ويديه وقدميه. وبعد هذا اللقاء توجه الرسول إلى الله تعالى بالدعاء فقال:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنْزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك" (ابن هشام والطبري).

بعد هذا الدعاء، توجه عائدًا إلى مكة، وفي الطريق توقف عند "نخلة" لبضع أيام ثم قفل عائدًا إلى مكة. وحسب تقاليد مكة فإنه لم يعد مواطنًا مَكّيًا. لقد غادرها بسبب عدائها له، فلا يمكنه العودة إلا بموافقة أهل مكة. بعث الرسول ﷺ برسالة إلى المطعم بن عديّ، أحد أشراف مكة، يطلب جواره لدخولها. ورغم أن المطعم كان عدوًا لدودًا كالآخرين، لكنه كان يملك قلبًا نبيلاً، فجمع أولاده وأقاربه،

وحملوا سلاحهم وذهبوا إلى الكعبة، ووقفوا في ساحة المسجد الحرام، وأعلن المطعم أنه قد أجار محمدًا ليعود إلى مكة. وعاد الرسول ﷺ وطاف بالكعبة مع المطعم وأبنائه وأقاربه وسيوفهم مسلولة، ثم صحبوه إلى داره. ولم يكن هذا الجوار الذي أعلنه المطعم يعني منح الحماية الكاملة للرسول ﷺ، إذ لم يتعد ما فعل المطعم سوى بلاغ رسمي يسمح له بالعودة فقط، ولقد استمر الرسول ﷺ يعاني من الاضطهاد مثل غيره، ولم يستطع المطعم أن يمنع عنه شيئًا.

إن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف قد انتزعت المدح حتى من أعداء الإسلام. فقد تحدث السير وليم موير عن رحلة الطائف في كتابه عن سيرة الرسول ﷺ، فقال:

هناك شيء شامخ وبطولي في هذه الرحلة التي قام بها محمد إلى الطائف؛ رجل وحيد، محتقر ومرفوض من قومه، يذهب في جسارة باسم الله، مثل يونس إلى نينوَى، ويدعو مدينة من الوثنيين كي يتوبوا ويساندوه في مهمته. إن ذلك يُلقي ضوءًا يدل على شدّة إيمانه بالأصل الإلهي لدعوته (حياة محمد، تأليف السير وليم موير، طبعة ١٩٢٣م ص ١١٢- ١١٣).

وعادت مكة إلى عداوتها القديمة. ومرة أخرى أصبح وطن الرسول ﷺ والبلدة التي يعيش فيها جحيمًا بالنسبة له، ولكنه استمر يخبر الناس برسالته، وبدأت جملة "لا إله إلا الله" تُسمع هنا وهناك. وظل الرسول ﷺ بكل حكمة ومحبة، وشعور بالتعاطف، يدعو الناس بإصرار ومثابرة. وأعرض عنه الناس، ولكنه خاطبهم ليلاً ونهارًا، وأعاد مخاطبتهم مرارًا وتكرارًا، ولقد صدع بدعوته سواء اهتم الناس به أم

لا، وكان لا بد أن يأتي الإصرار بأثماره. كذلك فإن تلك الحفنة من المسلمين التي عادت من الحبشة وقررت البقاء، راحت تبشر بالدين الجديد في سرّية مع الأصدقاء والجيران والأقارب. وقد اعتنق بعض هؤلاء الإسلام، وأعلنوا عن أنفسهم على الملأ، وشاركوا المسلمين الآخرين أشكالاً وأنواعًا من المعاناة التي كانوا يقاسون منها، ولكن الكثيرين لم تواتهم الشجاعة أن يعترفوا علانية، وإن كان القلب قد سكنه الاقتناع، فقد فضلوا الانتظار إلى أن يأتي ملكوت الله إلى الأرض.

خلال ذلك الوقت كان الرسول ﷺ يتلقى وحيًا يحتوي على تلميحات عن قرب إمكانية الهجرة من مكة. وقد تلقى أيضًا ما يفيد أن مكان الهجرة سيكون بلدة تتميز بوجود الآبار وحدائق النخيل، وقد ظن الرسول ﷺ أنها اليمامة، ولكن سرعان ما استبعد هذه الفكرة، وانتظر أمر الله تعالى يحدوه اليقين بأنه أيًّا كان المكان الذي ستتم الهجرة إليه، فلا بد أن الله ﷻ قد قدّر لـــه أن يكون مهد الإسلام.

الإسلام ينتشر في المدينة

اقترب موسم الحج، وبدأ الحجاج يتوافدون إلى مكة من جميع أنحاء بلاد العرب. وكان الرسول ﷺ يذهب حيثما يجد أيّة مجموعة من الناس، ليخبرهم عن الله الواحد، ويطلب منهم أن يكفوا عن كل أنواع التطرّف والتجاوزات، وأن يعبروا الطريق إلى ملكوت الله تعالى.

وقد أصغى البعض وأبدَى شيئًا من الاهتمام، والبعض أراد أن يستمع ولكن أهل مكة حالوا بينهم وبين ذلك، والبعض ممن ركب رأسه توقف ليسخر ويخرج ما في داخله من حقد واحتقار. وكان الرسول ﷺ في وادي "مِنى" حين رأى مجموعة من ستة أو سبعة من الأفراد ينتمون إلى قبيلة الخزرج، وهي قبيلة تسكن في يثرب وتتحالف مع اليهود، فسألهم إن كان يمكنهم الإنصات لما يريد أن يقوله. كانوا قد سمعوا عنه، وأثار اهتمامهم بأمره، فوافقوا. وقضى الرسول ﷺ بعض الوقت معهم ينبّئهم بأن مملكة الله صارت على الأبواب، وأن الأصنام سوف تزول وتختفي، وأن فكرة وحدانية الله سوف تعلو وتسود، كما سوف تسود قيم النقاء والطهارة مرة أخرى وينتشر الورع بين الناس، فهل يمكن أن يرحّبوا بهذه الرسالة في المدينة؟ وكان لكلام الرسول ﷺ وقع جليل في قلوب هذه المجموعة فقبلوا الرسالة، ووعدوا أن يجتمعوا بالآخرين عند عودتهم إلى المدينة، ويبحثوا معهم الأمر، وفي العام القادم سيرفعون رأيهم للنبي ﷺ عما إذا كانت المدينة على استعداد لاستقبال المهاجرين المسلمين القادمين من مكة. وعندما عادوا التقوا بأصدقائهم وأقاربهم وتحدثوا معهم فعلاً.

في ذلك الوقت كان في المدينة قبيلتان عربيتان وثلاث قبائل يهودية. القبائل العربية هي الأوس والخزرج، والقبائل اليهودية هي بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع. كانت الأوس والخزرج في حرب دائمة، وكانت قبيلتا قريظة والنضير في حلف مع الأوس، أما بنو قينقاع فكانت في حلف مع الخزرج. وكان الجميع قد تعبوا من

الحرب ومالوا إلى السلام، وقرروا في النهاية تنصيب زعيم الخزرج عبد الله بن أُبيّ بن سلول ملكًا على المدينة. وكان الأوس والخزرج قد سمعوا من اليهود الكثير من النبوءات المكتوبة في التوراة، كما سمعوا أيضًا الروايات اليهودية عن المجد المفقود لليهود، وعن مقدم نبيّ "مثيل لموسى". وتعوّد اليهود أن يقولوا إن مقدم هذا الرسول قد صار على الأبواب، وقد أوشك أن يظلهم زمانه، وأن مقدم ذلك الرسول سيكون علامة على عودة مجد بني إسرائيل والقضاء على أعدائهم. وعندما سمع أهل المدينة عن أن الرسول ﷺ قد ظهر في مكة، تأثروا بذلك تأثرًا بالغًا، وتساءلوا إن كان هذا هو الرسول الذي سمعوا عنه من اليهود.

وقد آمن الكثير من الشباب في الحال، وفي موسم الحج التالي جاء إلى مكة اثنا عشر رجلاً ليبايعوا الرسول ﷺ. كان عشرة منهم ينتمون لقبيلة الخزرج واثنان من قبيلة الأوس، ولقوا الرسول ﷺ في وادي "مِنى"، ووضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وبايعوه على الإيمان بوحدانية الله تعالى وعزمهم على الكفّ عن كل الآثام المعروفة، والامتناع عن وأد البنات، وقوْل الزّور، وأن يطيعوه في كل ما يأمرهم به من معروف. ولما عادوا إلى المدينة، راحوا ينشرون الدين الجديد بين جميع الناس. وزادت حماستهم وحميّتهم. وتم نزع الأصنام من محاريبها وقُذف بها في الطرقات. وأولئك الذين تعوّدوا الركوع أمام التماثيل والأصنام بدأوا يرفعون رؤوسهم عاليا، فقد عقدوا العزم على ألا يركعوا إلا لله الواحد الأحد. وتعجب اليهود!! إن قرونًا من الصداقة

والمناقشات مع العرب فشلت في إحداث الأثر الذي أحدثه ذلك المعلم الذي ظهر في مكة في أيام معدودات. وكان أهل المدينة يتوافدون على القلة الذين أسلموا ليعرفوا منهم المزيد عن الإسلام، ولكن هذا العدد القليل لم يكن ليستطيع الإجابة على هذا الكم الكبير من التساؤلات، ولم تكن لديهم المعرفة الكافية التي تؤهلهم لذلك، فقرروا أن يرسلوا إلى الرسول ﷺ ليطلبوا منه أن يبعث إليهم من يقوم بتعليمهم أمور الإسلام، ووافق الرسول ﷺ على إرسال مُصعَب بن عُمَير، وهو أحد شباب المسلمين الذين ذهبوا إلى الحبشة، فكان مُصعب أوّل مبشر إسلامي يخرج من مكة.

وفي تلك الأثناء، تلقى الرسول ﷺ وعدًا عظيمًا من الله ﷻ. فقد رأى رؤيا جليلة، ورأى نفسه في بيت المقدس وقد اصطف الأنبياء خلفه لصلاة الجماعة. وكان بيت المقدس في الرؤيا يرمز للمدينة المنوّرة التي كان من المقدّر لها أن تكون المركز الإسلامي الذي تنطلق منه عبادة الله الواحد الأحد، أما الأنبياء الآخرون الذين احتشدوا خلف الرسول ﷺ فقد كانوا يرمزون إلى أتباع الأديان الآخرين الذين سوف ينضمون إلى الإسلام، وأن الإسلام سيصبح دِينًا للعالم أجمع.

ومع مرور الوقت، كانت الظروف في مكة تزداد حرجًا، وصار الاضطهاد في أبشع صوره التي من الصعب تصورها. وقد سخر أهل مكة من هذه الرؤيا التي أعلن عنها الرسول ﷺ ووصفوها بأنها أحلام يقظة وأماني الخيال. وقليلاً ما كانوا يعلمون أن الأساس قد أقيم بالفعل لبناء "أورشليم الجديدة" كما جاء في نبوءات الكتاب المقدس،

وأن الناس في الشرق والغرب في شوق ولهفة ليسمعوا الرسالة العظمى الأخيرة من الله تعالى.

وفي تلك الأيام، اشتعلت الحرب بين قيصر الروم وكسرى فارس، وانتصر الفُرْس على الروم، واحتلت جيوش الفرس الشام وفلسطين، ودمروا القدس، واستولوا على مصر وآسيا الصغرى، واستطاع القادة الفُرس أن ينصبوا خيامهم على مشارف البسفور، على بعد عشرة أميال فقط من القسطنطينية. وتهلل أهل مكة للنصر الذي حققه الفُرس، وقالوا إن حكم الله قد صدر، فها قد انتصر أولئك الذين يعبدون الأصنام في فارس على أهل الكتاب من الروم. وفي ذلك الوقت تلقى الرسول ﷺ الوحي القرآني التالي:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣- ٧)

وتحققت النبوءة في سنوات قلائل، فقد هزم الروم الفرس واستردوا جميع البلاد التي فقدوها. وقد تحقق أيضًا الجزء الذي يقول: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾، فقد بدأ الإسلام يتقدم. وكان أهل مكة قد اعتقدوا أنهم قضوا على الإسلام لما أقنعوا الناس ألا يستمعوا إلى المسلمين، بل يظهروا لهم العداوة والاحتقار. وفي نفس الوقت، تلقى الرسول ﷺ وحي الله ﷻ يخبره بأنباء انتصار المسلمين والقضاء على نفوذ أهل مكة. وقد أعلن الرسول ﷺ الآيات التالية:

﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ۞ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ۞ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (طه: ١٣٤-١٣٦)

لقد طالب أهل مكة أن يروا آية من عند الله تعالى، فأخبرهم سبحانه أن النبوءات التي وردت في الكتب السابقة عن الرسول والإسلام يجب أن يكون فيها الكفاية، ولو أن الله تعالى أهلكهم بعذاب قبل أن يتم شرح الإسلام لهم لقالوا إنهم لم تكن لديهم الفرصة لدراسة الآيات. وعلى ذلك، ينبغي على أهل مكة أن ينتظروا.

وتوالى كل يوم نزول الوحي الذي يَعِدُ بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين. وعندما ينظر أهل مكة إلى قوتهم ويسر حالهم، وإلى ضعف المسلمين وفقرهم، ثم يسمعون وعود التأييد الإلهي وانتصار المسلمين وهي تتوالى يوميًا في الوحي النازل على الرسول ﷺ كانوا يعجبون ويعجبون. فهل أصابهم الجنون أم أن الرسول ﷺ هو الذي أصابه الجنون؟ لقد كانوا يأملون أن يُرغم التعذيب المسلمين على الخضوع وترك إيمانهم والعودة إلى دين أهل مكة، وأن الرسول نفسه وأتباعه المقربين سوف يبدأ الشك يساورهم في صدق دعواه. ولكنهم بدلاً من ذلك استمعوا لتوكيد جازم واثق كما يلي:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۞ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة:٣٩-٥٣)

لقد أنذر الله تعالى أهل مكة أن جميع آمالهم الغالية سوف تنهار وتتحطم، فالرسول ﷺ ليس بشاعر ولا بكاهن ولا يتقوّل على الله، وإن القرآن المجيد تذكرة للمتقين. وصحيح أن منهم من يكذبه، ولكن له أيضًا معجبيه الذين لا يريدون أن يعترفوا بعظمته، لأنهم يغارون من جمال تعاليمه، وجلال حقائقه، فتصيب قلوبهم الحسرة، ولا شك أن جميع الوعود والنبوءات التي جاءت فيه سوف تتحقق يقينًا. وعلى الرسول ألا يهتم بالمعارضين، بل يستمر في تسبيح ربه العظيم.

وأقبل الموسم الثالث للحج، وكان بين حجاج المدينة رهط من المسلمين، وقد رغب هؤلاء المسلمون في الالتقاء بالرسول ﷺ على حدة بسبب المعارضة الشديدة من أهل مكة.

كان تفكير الرسول الخاص يتجه أكثر وأكثر إلى المدينة كمكان واعد محتمل للهجرة، وقد ذكر الرسول ﷺ هذا لبعض المقربين إليه من أقاربه، ولكنهم حاولوا إقناعه بالعدول عن كل الأفكار التي تنحو هذا النحو. وقالوا ينصحونه إنه رغم المعارضة الشديدة في مكة، فإن له قرابات عديدة من ذوي النفوذ. ثم إن احتمالات النجاح في المدينة غير مؤكدة، وإذا تبين أن المدينة مثل مكة في العداء أو أشد، فكيف يستطيع أقاربه في مكة حينئذ أن يقدّموا إليه يد المساعدة؟ غير أن

الرسول ﷺ كان مقتنعًا أن الله تعالى قد كتب أن تكون المدينة هي مكان الهجرة، ولذلك رفض نصيحة أقاربه وقرر الهجرة إلى المدينة.

بيعة العقبة الأولى

بعد منتصف الليل التقى الرسول ﷺ مرة ثانية بمسلمي المدينة في وادي العقبة مع عمه العباس رضي الله عنه. كان عدد مسلمي المدينة يبلغ ثلاثة وسبعين، اثنان وستون منهم من الخزرج، وأحد عشر من الأوس. وضمّ الرهط امرأتين، الأولى هي أمّ عمارة؛ من بني النجار الذين تعلموا الإسلام من مُصعب بن عُمَير، وكانوا قومًا يملؤهم الإيمان واليقين. وقد أثبتوا جميعًا أنهم أعمدة للإسلام، وكانت أمّ عمارة رضي الله عنها نموذجًا لهم، فقد غرست في نفوس أبنائها ولاءً لا يتزحزح للإسلام. وفي الحرب التي وقعت مع مسيْلمة الكذاب بعد وفاة الرسول ﷺ، أُخذ أحد أبنائها، وهو حبيب بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، أسيرًا إلى مسيلمة الكذاب. وقد حاول مسيلمة زعزعة عقيدة حبيب؛ فسأله قائلاً: "هل تؤمن أن محمدًا رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "نعم". فسأله مسيلمة: "وهل تؤمن أني رسول الله"؟ فقال حبيب: "لا". وعندئذ أمر مسيلمة بقطع أحد الأطراف من جسد حبيب. ثم سأله مرة أخرى: "أتؤمن أن محمدًا رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "نعم". فسأله: "أتؤمن أني رسول الله"؟ فأجاب حبيب: "لا". وعند ذلك أمر مسيلمة بقطع طرف آخر من جسد حبيب، وظل هكذا يقطع طرفًا بعد طرف حتى تمزّق جسد حبيب إلى أشلاء. ولقد مات

حبيب ميتةً قاسية بشعة، ولكنه ترك خلفه مثالاً لا يُنسى للبطولة والتضحية من أجل العقيدة الدينية. (السيرة الحلبية، ج٢، ص١٧)

وأما أم عمارة فقد صحبت الرسول ﷺ في العديد من الغزوات.

وباختصار، لقد حقق هذا الرهط من مسلمي المدينة تميزًا كبيرًا في الولاء والإيمان. لقد جاءوا إلى مكة لا من أجل الثروة، بل من أجل اليقين، ولقد نالوا فيضًا وافرًا من هذا اليقين.

وتكلم العباس رضي الله عنه، مدفوعًا بالروابط الأسرية والإحساس بالمسئولية الشرعية عن سلامة الرسول ﷺ فقال للوفد:

"يا معشر الخزرج. إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عزّ من قومه ومنَعة في بلده. إلا أنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّ ومنَعة من قومه وبلده".

فقام البراء رضي الله عنه قائد الرهط وأجاب بثقة ويقين:

"لقد سمعناك. وإن قرارنا لحازم في هذا الشأن، وحياتنا رهن أمر رسول الله، لقد عزمنا وإننا ننتظر قرار الرسول" (السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨)

عرض الرسول ﷺ الإسلام مجددًا وبيّن تعاليمه. وأخبر الوفد أنه سيذهب إلى المدينة إذا كانوا سيمنعون الإسلام كما يمنعون نساءهم وأطفالهم. ولم يكن قد أكمل حديثه حين صاح الرهط الثلاثة

والسبعون في صوت واحد: نعم نعم. وفي غمرة حماسهم نسوا أنه قد يسمعهم أحد. وحذرهم العباس حتى يخفضوا الصوت. ولكن الإيمان كان يتدفق في قلوب ذلك الرهط وكان وجدانهم يموج باليقين، فلم يعد الموت شيئًا مرهوبًا في عيونهم. وعندما سمعوا تحذير العباس صاح أحدهم بصوت عال: يا رسول الله إنَّا لسنا خائفين، وإذا أذنت لنا فإنّا نستطيع أن نقاتل أهل مكة الآن وننتقم لما أجرموا في حقك. لكن الرسول ﷺ قال إنه لم يُؤمر بقتال. عند ذلك عقد الوفد بيْعة الوفاء وانفضّ الاجتماع.

عرفت مكة بأمر الاجتماع. فذهبوا إلى خيام أهل المدينة حيث اشتكوا هؤلاء الزائرين لسادتهم، لكن عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهو سيد سادتهم، لم يكن يدري شيئًا عما حدث، فأكد لأهل مكة أن هذا الخبر إشاعة كاذبة، فلقد اختاره أهل المدينة زعيمًا ولا يمكنهم فعل شيء كهذا بدون علمه ورضاه. لم يكن عبد الله قد علم بعد أن أهل المدينة قد طرحوا حكم الشيطان، ورضوا بحكم الله بدلاً.

الهجـرة

عاد الوفد إلى المدينة، وبدأ الرسول ﷺ وأتباعه يستعدّون للهجرة. وبدأت الأسر تختفي الواحدة بعد الأخرى. كانت الشجاعة تملأ قلوب المسلمين ليقينهم أن ملكوت الله قريب. وأحيانًا كان الزقاق كله يتم إخلاؤه في ليلة واحدة، ويصبح أهل مكة ليروا أبواب كل منازل هذا

الزقاق مغلقة، فيعلمون أن قاطنيها قد هـاجروا إلى المدينـة. ولقـد أدهشهم أن يكون للإسلام كل هذا التأثير العجيب.

وفي النهاية، لم يبق أحد من المسلمين في مكة سوى بعض العبيـد، والرسول ﷺ نفسه وأبو بكر رضي الله عنه وأهله، وعليّ بن أبي طالـب رضي الله عنه. وتأكد لأهل مكة أن فريستهم توشك أن تفلت، فاجتمع سادتهم ثانية وقرروا أنه لا بد من قتل الرسول ﷺ. وبتدبير إلهي خاص، كان الموعد الذي حدّدوه لقتل الرسول ﷺ هو الموعد الـذي حـدّده الله تعـالى لنجاته. وعندما اجتمعوا عند باب بيت الرسول ﷺ في نيّة مبيّتة لقتله، كان ﷺ ينسلّ خارجًا في سرّية تحت جنح ظلام الليل. ولا بد أن أهل مكة قد خافوا أن يحبط تدبيرهم الأحمق بعمل من طرف الرسول ﷺ، لذلك باشروا عملهم بحذر، وعندما مرّ الرسول ﷺ نفسه عليهم ظنوه شخصًا آخر، وانسحبوا متوارين جانبًا. وكان أبو بكر، وهو الصديق الأثير لدى الرسول ﷺ، قد علم بخطة الرسول ﷺ قبل التنفيذ بيـوم، فانضم إليه في حينه. وغادر الاثنان مكة، ولجآ إلى غار يسمى غـار ثور؛ على قمة جبل يبعد ثلاثة أميال من مكة. وعندما علم أهل مكة بإفلات الرسول ﷺ، اجتمعوا وأرسلوا قوة مسلحة تطارده، يقودهـا قصّاص أثر. وبلغت القوة جبل ثور، وأمام الغار الذي يختفـي فيـه الرسول وأبو بكر، وقف قصّاص الأثر قائلاً إن محمدًا إمَّا أن يكون في الغار أو أنه صعد إلى السماء. وسمع أبو بكر رضي الله عنه ذلك، فـدقّ قلبـه بعنف وقال في همس: "لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآنا". فقال الرسول ﷺ: "لا تحزن إن الله معنا". فقال أبو بكر: "إني لا أخشـى

على نفسي بل أخشى عليك، فإنني إن مت فما أنا إلا امرؤ عادي، ولكن لو أنك مت فذلك يعني موت الإيمان والدين (الزرقاني). فطمأنه الرسول ﷺ قائلاً له: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما" (البخاري، كتاب المناقب).

كان الله ﷻ قد قدّر أن ينتهي طغيان مكة، وكتب العزة والانتشار للإسلام. لذلك فقد خدع المطاردون أنفسهم؛ فسخروا من قول قصّاص الأثر، وقالوا له إنّ الغار مكشوف ولا يُغري باللجوء إليه، ونظرًا لوجود الحيات والأفاعي به، فمن الخطر أن يلجأ إليه أحد. ولو أنهم انحنوا قليلاً لرأوا الرسول ﷺ وصاحبه، ولكنهم لم يفعلوا، فصرفوا قصّاص الأثر، وعادوا إلى مكة.

وانتظر الرسول ﷺ وأبو بكر يومين بالغار، وفي الليلة الثالثة حسب الخطة الموضوعة، جاءت ناقتان سريعتان إلى الغار؛ إحداهما للرسول ﷺ للرسول والدليل الذي سيرشد إلى الطريق، والأخرى لأبي بكر وخادمه عامر بن أبي فُهَيرة.

سراقة يطارد الرسول ﷺ

قبل أن ينطلق الرسول ﷺ، نظر خلفه إلى مكة، وتفجّرت المشاعر في قلبه. لقد كانت مكة مسقط رأسه، عاش فيها طفلاً ورجلاً، وتلقّى فيها دعوة الله ﷻ. لقد كانت المكان الذي ازدهر فيه آباؤه منذ إسماعيل عليه السلام. ومع جيشان هذه الخواطر، ألقى عليها نظرة أخيرة طويلة وقال: "عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللهِ وَلَوْ

لا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ". عند ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه: "هل تنتظر قرية أخرجت نبيّها سوى الهلاك"؟

عندما فشلت خطة المطاردة، وضع أهل مكة جائزة مقدارها مائة جمل لمن يأتي برأس الهاربيْن إلى مكة حيّين أو ميّتين، محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه. وأُعلن الخبر في القبائل المحيطة بمكة، وأغرت الجائزة سُراقة بن مالك؛ أحد سادة البدو، فبدأ في مطاردة الرهط المهاجر، وأخيرًا لمحهم على الطريق إلى المدينة. رأى جملين على البعد محمّلين، فخمّن أنهما لابد يحملان محمدًا ﷺ وأبا بكر. فهمز حصانه، غير أنه قبل أن يذهب بعيدًا، إذا به يتعثر ويسقط، ومعه سراقة. إن رواية سُراقة في هذا الصدد لذات مغزى. قال سُراقة:

"فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، فخرج الذي أكره. فركبت فرسي وعصيت الأزلام، وذهبت فرسي تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات (من الواضح أن ذلك كان خوفا على سلامة الرسول ﷺ)، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضَت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان. فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره. فناديتهم بالأمان فوقفوا. فركبت فرسي حتى جئتهم، فوقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديّة. وأخبرتهم أخبار ما

يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أن قال: أَخْفِ عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن. فأمر عامر بن فُهَيرة، فكتب لي في رقعة من أدم. وعندما أردت أن أعود بالكتاب تلقى رسول الله وحيًا عن المستقبل، فقال يا سُراقة، كيف أنت إذا لبست سواري كسرى؟ فسألته دهشًا: أيّ كسرى؟ كسرى بن هرمز؟ إمبراطور الفُرس قال الرسول: نعم". (أُسُد الغابة)

وبعد هذا اليوم بستة عشر أو سبعة عشر عامًا، تحققت النبوءة حرفيًّا. لقد دخل سراقة الإسلام، وذهب مهاجرًا إلى المدينة، ومات الرسول ﷺ، وبعده مات أبو بكر ﷺ، ثم أصبح عمر ﷺ خليفة الإسلام. ودفع نفوذ الإسلام المتنامي الفُرس إلى الإحساس بالغيرة، فهاجموا المسلمين. ولكنهم بدلاً من إخضاع المسلمين، خضعوا هم للمسلمين. وسقطت عاصمة الفُرس في يد المسلمين حيث استولوا على كنوز كسرى، وفيها سواراه الذهبيان اللذان كان يلبسهما عند ممارسة السُلطة. وكان سُراقة بعد إسلامه قد تعوّد على تكرار ذكر مطاردته للرسول ﷺ ورهطه، وكان يقصّ ما جرى بينه وبين رسول الله. وعندما وُضعت غنائم الحرب أمام عمر ﷺ، لمح السوارين وتذكّر ما قال الرسول ﷺ لسُراقة. لقد كانت نبوءة عظيمة، نطق بها الرسول ﷺ وهو في أقصى درجات الضعف. وقرر عمر ﷺ أن يقدّم تحقيقًا عمليًا للنبوءة على رءوس الأشهاد. فدعا سُراقة، وأمره أن يلبس السواريْن. واعترض سُراقة لأن ارتداء الذهب محرّم على الرجال في الإسلام. فقال عمر ﷺ إن ذلك حق، ولكن تلك المناسبة كانت

استثناء. لقد رأى الرسول ﷺ سواري كسرى على معصميه، فكان لا بد له من لبسهما. لقد كان اعتراض سُراقة قائمًا على احترامه لتعاليم الرسول ﷺ، وإلا فإنه كان يتلهف على تحقيق هذه النبوءة العظيمة تحقيقًا عمليًا. فلبس السواريْن، ورأى المسلمون نبوءة رسول الله وقد تحققت. (أُسُد الغابة)

لقد أصبح الرسول المطارَد ملكًا. ورغم أنه لم يعد هو نفسه في هذا العالم، إلا أن أولئك الذين اتبعوه استطاعوا أن يشاهدوا كلماته ورؤياه تتحقق.

رسول الله ﷺ يصل إلى المدينة

وعودة إلى قصة الهجرة، واصل الرسول ﷺ رحلته دون ترويع من أحد بعد أن صرف سُراقة، ولما وصل إلى المدينة وجد الناس ينتظرونه بشوق عظيم وصبر بالغ، فلا يمكن أن يطلع عليهم فجر يومٍ أسعد من هذا اليوم؛ فإن الشمس التي كانت تشرق بنورها على مكة قد جاءت لتشرق على المدينة. لقد وصلتهم الأخبار بأن الرسول ﷺ قد غادر مكة، ولذا كانوا يتوقعون وصوله. ولعدة أيام، ظل الكثيرون منهم، في مجموعات وطوائف، يغادرون المدينة في الصباح، وينتظرونه على مبعدة أميال منها، ثم يعودون في المساء كاسفي البال. وعندما بلغ الرسول ﷺ المدينة أخيرًا، قرر التوقف عند قباء فترة، وهي قرية قرب المدينة. ورأى أحد اليهود البعيريْن، وحدَس أن راكبيْهما الرسول ﷺ وصاحبه، فارتقى ربوَة ونادَى عاليًا: "يا بني قيلة، ها قد جاء الذي

أنتم تنتظرون". فهرع إلى قباء كل من سمع النداء، بينما ملأت الفرحة أهل قباء بوجود الرسول ﷺ بينهم، وراحوا ينشدون ويتغنون بتشريفه لهم.

وقد تجلّت البساطة المطلقة للرسول ﷺ في حادثة وقعت حينذاك بقباء. لم يكن أغلب أهل المدينة قد رأوا رسول الله من قبل، ولما رأوه ومرافقيه جالسين تحت شجرة يستظلون، ظن أكثرهم أن أبا بكر هو الرسول، إذ أن لحيته كانت أكثر شيبة من لحية رسول الله، كما كانت ملابسه تبدو أفضل من ملابس الرسول ﷺ، ولذلك تحوّلوا إلى أبي بكر وجلسوا أمامه، بعد أن قدموا له آيات الاحترام والإجلال الواجبة للرسول. فلما رأى أبو بكر أنهم أخطأوا، نهض وخلع عباءته وحجب بها أشعة الشمس عن الرسول ﷺ وقال: "يا رسول الله، إنك تجلس في الشمس فدعني أظلّلك" (البخاري). وبهذه البراعة واللطف، بيّن أبو بكر لأهل المدينة ببساطة ما أخطأوا فيه.

مكث الرسول ﷺ عشرة أيام في قباء، وبعدها أخذه أهل المدينة إلى بلدهم. وعند دخوله المدينة، وجد الناس جميعًا قد جاءوا لاستقباله، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ومما أنشدوه ترحيبا به كانت هذه الأبيات (السيرة الحلبية):

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

لم يدخل الرسول ﷺ المدينة من الجانب الشرقي، فلماذا ذكروا طلوع البدر؟! لقد كانوا يقصدون أنهم كانوا يحيون في ظلام قبل أن يأتيهم ﷺ ليشرق بنوره عليهم.

لقد دخل ﷺ المدينة يوم الاثنين، ودخل غار ثور يوم الاثنين، وربما يبدو غريبًا أنه فتح مكة يوم الاثنين أيضًا، بعد عشر سنوات من هذا التاريخ.

أبو أيوب الأنصاري يستضيف رسول الله

عندما دخل الرسول ﷺ المدينة، تلهّف الجميع لنيل شرف استضافته. وأثناء مرور بعيره على الدروب، كانت القبائل تصطف لاستقباله ويقولون: "هلم إلى العدد والعُدّة والسلاح والمَنعة". كانوا يعرضون بيوتهم، وأموالهم، وأنفسهم، لاستقباله وحمايته. وأظهر كثيرون حماسًا وحمية ولهفة بالغة، فكانوا يواجهون الناقة ويأخذون بعنانها، ويصرّون أن يترجّل الرسول ﷺ عند أبواب دورهم ليدخلها فينالوا شرف استضافته. ويرفض الرسول ﷺ بكل أدب قائلاً: "دعوها فإنها مأمورة".

وأخيرًا توقفت الناقة عند موقع يخصّ يتيمين لبني النجار، فترجّل الرسول ﷺ قائلاً: هذا المنْزل. وجاء كافل اليتيمين وعرض المكان ليستخدمه رسول الله، فردّ بأنه لن يقبل المكان إلا شراء، وتم الاتفاق على الثمن، وقرر الرسول ﷺ أن يبني في هذه البقعة مسجدًا وبعض البيوت. وبعد هذه الترتيبات، سأل الرسول ﷺ عن أقرب الجيران،

فجاء أبو أيوب الأنصاري وقال إن منْزله هو الأقرب، وإن كل ما لديه رهن لخدمة رسول الله، فطلب ﷺ منه أن يعد له غرفة في منْزله، وكان منْزل أبي أيوب مكوّنًا من طابقين، فعرض أن يسكن الرسول ﷺ الطابق الأعلى، ولكنه فضّل الطابق الأول، لأنه كان أيسر لزوّاره.

وتجلى الحب الشديد الذي يكنه أهل المدينة للرسول ﷺ مرة أخرى، إذ وافق أبو أيوب أن يدع الرسول ﷺ يسكن الدور الأول في منْزله، ولكنه رفض أن ينام على سقفٍ ينام رسول الله تحته. فقد رأى هو وزوجه في ذلك نوعًا من عدم اللياقة. وحدث أن انكسر إناء للماء فانساب منه الماء على الأرض، وخشي أبو أيوب أن يتساقط بعض الماء على الغرفة التي يشغلها الرسول ﷺ، فأخذ لحافه وجفف به الماء قبل أن يتسرب. وفي الصباح، زار أبو أيوب الرسول ﷺ وحكى له أحداث الليلة البارحة. وعندما سمع الرسول ﷺ، وافق أن يسكن الطابق العلوي. كان أبو أيوب يعدّ وجبات الطعام ويرسلها إلى فوق، فيأكل الرسول ﷺ ما يشاء، ويأكل أبو أيوب وزوجه ما يتبقى. وبعد أيام قلائل طلب آخرون أن ينالوا شرف استضافة الرسول ﷺ، وقد استضافه أهل المدينة إلى حين أن تم إعداد البيت الذي استقر فيه. وكانت هناك أرملة لها ولد وحيد يسمى "أَنَسًا"، في الثامنة أو التاسعة من عمره، فجاءت بولدها إلى الرسول ﷺ وقدّمته له ليكون في خدمته الخاصة. وقد صار لأَنَس هذا شأن كبير خلّده تاريخ الإسلام، فقد أصبح عالمًا عظيمًا كما صار غنيًا أيضًا، وعاش إلى أن بلغ من العمر مائة عام. وفي أيام الخلفاء كان يتمتع باحترام بالغ من كل

شخص. وقد رُوي عن أنسٍ أنه خدم الرسول ﷺ منذ كان صبيًا وحتى وفاة الرسول ﷺ، ومع ذلك فإنه لم يحدث قط أن عنّفه ولا لامه ولا كلفه يومًا بعمل لا يطيقه. وكان أنس خادمه الوحيد طوال إقامته بالمدينة. وتُبين شهادة أنس حقيقة خُلُق الرسول ﷺ في الفترة التي بدأ يباشر فيها السلطة ويتقلد السلطان في المدينة، وتنفتح له أبواب القوة والازدهار.

وفيما بعد، أرسل الرسول ﷺ زيدًا إلى مكة ليُحضر أسرة النبيّ وأقاربه. كان أهل مكة مذهولين بسبب مفاجأة هجرة النبيّ وأتباعه التي أُحكِم تنفيذها والتخطيط لها. ولبعض الوقت لم يفعلوا شيئًا يثير غضبه، وعندما غادرت أسرة الرسول مكة مع أسرة أبي بكر لم يثيروا لهم أية متاعب، ووصلت الأسرتان المدينة دون صعوبات. وفي ذلك الوقت، وضع الرسول ﷺ أساس المسجد في المكان الذي اشتراه لهذا الغرض، وبعد ذلك بني بيوتًا له ولبعض صحبه ورفقائه، وفي سبعة أشهر كان البناء قد تم.

الأخطار تحوم في المدينة

خلال أيام من وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، أوْلت القبائل المشركة هناك الكثير من الاهتمام بالإسلام، واعتنقته الغالبية منهم، ولكن كان فيهم الكثير ممن لم تستيقن قلوبهم بعد. وبهذا فقد انضمت إلى المسلمين طائفة لم تكن قلوبها مسلمة لله. وقد قام أفراد هذه الطائفة بأداء أسوأ الأدوار في التاريخ اللاحق، غير أن بعضهم تاب

وأصبح مخلصًا، ولكن الآخرين ظلوا علي غلّهم يكيدون للإسلام والمسلمين. ولقد رفض بعض المشركين كلية أن ينضووا تحت لواء الإسلام، و لم يطيقوا تحمل تزايد أثر الدين الجديد، فهاجروا من المدينة إلى مكة، وأصبحت المدينة بلدًا مسلمًا، وتم فيها تأسيس عبادة الله الأحد. لم تكن هناك مدينة أخرى في العالم كله تستطيع أن تدّعي ذلك الشرف، و لم تكن فرحة النبيّ وصحبه قليلة، أن يحدث ذلك خلال أيام قليلة من هجرتهم، وأن تقلع مدينة بأكملها عن عبادة الأصنام، وأن تؤسس بدلاً منها عبادة الله الأحد، الذي ليس كمثله شيء.

ولكن، لم يكن هناك سلام بعد، و لم يستتب الأمن تمامًا للمسلمين. ففي المدينة نفسها كانت هناك طائفة اعتنقت الإسلام ظاهريًا فقط، وفي بواطنهم كانوا أعداء ألداء للرسول ﷺ. وكذلك كان هناك اليهود الذين كانوا يكيدون له بلا توقف. وكان الرسول ﷺ يعي كل هذه الأخطار، فظل يقظًا، وحثّ أصحابه وأتباعه أن يكونوا على حذر، وكان عادة يظل يقظًا طوال الليل (فتح الباري ج ٦ ص٦٠). وأخيرًا طلب المساعدة ذات ليلة بسبب الإجهاد الذي أصابه من كثرة السهر، وعلى الفور سمع قعقعة سلاح، فسأل: "منْ هذا؟". فرد عليه المجيب قائلاً: "سعد بن أبي وَقَّاص يا رسول الله جئتُ أحرسك". (راجع البخاري ومسلم)

ولقد تحمّل أهل المدينة نصيبهم من المسئولية بأمانة وكفاءة. فقد دعوا رسول الله أن يأتي ليقيم بينهم، وأصبح من واجبهم الآن أن

يحموه ويذودوا عنه. فاجتمعت القبائل في المدينة، وقرروا أن يقوموا بحراسة داره مناوبة بينهم.

و لم يكن هناك من فرق كبير بين الأخطار التي كانت تحدق بحياة الرسول ﷺ في مكة والأخطار التي كانت تهددها في المدينة، وأيضًا لم ينعم أتباعه بالسلام في المدينة كما لم ينعموا به في مكة. وكان الفرق الوحيد هو أن المسلمين في المدينة كانوا يقومون بعبادة الله تعالى في المسجد الذي بنوه لعبادته ﷻ، فكانوا يجتمعون من أجل ذلك خمس مرات دون أن يتعرضوا للمنع أو الضرب. غير أن الأخطار ظلت تحوم في المدينة، وخاصة حينما يرخي الليل أستاره.

ومر شهران أو ثلاثة. وأفاق أهل مكة من ذهولهم، وبدأوا في وضع الخطط لمضايقة المسلمين، و لم يمض زمن طويل حتى أدركوا أن الاكتفاء بمضايقة المسلمين الذين بقوا في مكة ومن حولها لن يجدي شيئًا، وأنه لا بد أن يهاجموا النبيّ وصحبه في المدينة، ويدفعوهم إلى ترك ملجئهم الجديد. فوجّهوا خطابًا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول، زعيم المدينة، الذي كان أهل المدينة قد أجمعوا على تنصيبه ملكًا قبل وصول الرسول ﷺ. وقالوا في هذا الخطاب إنهم صُدموا لوصول النبيّ إلى المدينة، وأن أهل المدينة ارتكبوا خطأ بالغًا بتوفير ملجأ له. وفي النهاية أقسموا بالله أنهم سيهاجمون المدينة مادامت قد آوت عدوّهم، إلا إذا طرده أهل المدينة أو قاتلوه. وأنهم حين يهاجمون المدينة فسوف يضعون السيف في كل الرجال، وسوف يسترقّون كل النساء. وجاء في سنن أبي داود، كتاب الخراج:

"إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ، أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ".

وخُيِّل لعبد الله بن أبي بن سلول أن في هذه الرسالة نجدة إلهية، فاستشار المنافقين الآخرين في المدينة، وأقنعهم أنهم لو تركوا النبيّ يعيش في سلام بينهم، فسوف يجلبون على أنفسهم عداء مكة، لذا لا بد من محاربته حتى ولو من أجل تهدئة أهل مكة. وعلم الرسول ﷺ بذلك، فذهب إلى عبد الله بن أبي بن سلول، وحاول إقناعه أن خطوة كهذه ستكون انتحارية، فكثير من سكان المدينة صاروا مسلمين، وهم على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل الإسلام. فإذا أعلن عبد الله الحرب على المسلمين، فإن أغلبية أهل البلد سيقاتلون إلى جانب المسلمين، وحرب كهذه سوف تكلفه غاليًا، وسوف يكون فيها هلاكه هو بالذات. وتأثر عبد الله بهذه النصيحة، واقتنع بالعدول عن خطته.

وفي ذلك الوقت اتخذ الرسول ﷺ خطوة أخرى هامة. فقد جمع المسلمين، واقترح عليهم أن يشكل كل اثنين من المسلمين معًا رابطة تجمعهما كأخَوَيْن. وتقبّل المسلمون الفكرة بقبول حسن. فاتخذ الأنصارُ من أهل المدينة.. المهاجرين من أهل مكة إخوةً لهم. وفي ظل هذه الأخُوّة، عرض مسلمو المدينة على مسلمي مكة مشاركتهم في ثرواتهم وممتلكاتهم؛ حتى إن أحد مسلمي المدينة عرض أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المكّي المسلم. ورفض المهاجرون من أهل مكة هذه العروض الكريمة التي قدّمها إخوانهم من الأنصار، ولكن الأنصار

ظلوا على إصرارهم. وعُرض الأمر على الرسول ﷺ، واحتج الأنصار بأن مسلمي مكة هم إخوانهم، ومن ثم فلا بد لهم من مشاركتهم ما يملكون. وإن لم يكن المهاجرون يعلمون كيف يفلحون الأرض ويزرعونها، فيمكنهم مقاسمة الأنصار في غلة الأرض إن لم يملكوا الأرض نفسها. ورفض مسلمو مكة شاكرين هذا العرض السخي الكريم، وفضّلوا البقاء في مهنة التجارة. ولقد فتح الله تعالى للمهاجرين أبواب الرزق فصاروا أغنياء ثانية، ولكن ظل مسلمو المدينة يذكرون دائمًا أن عرضهم بالمشاركة مع المهاجرين في ما يملكون ظل قائمًا. وقد حدث مرارًا بعد أن مات واحد من الأنصار، أن قام أبناؤه باقتسام ممتلكاتهم مع من تآخوا معهم من المهاجرين. واستمر هذا التقليد معمولاً به لسنوات طويلة إلى أن أبطله الوحي القرآني بما جاءت به تعاليمه حول تقسيم الميراث (البخاري ومسلم).

إبرام معاهدة بين مختلف قبائل المدينة

وبالإضافة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، عقد الرسول ﷺ ميثاقًا يربط بين كل سكان المدينة، وبهذا الميثاق اتحد العرب واليهود مع المسلمين في مواطنة مدنية مشتركة. وشرح الرسول ﷺ للعرب واليهود أنهم قبل وجود المسلمين كانوا فريقين اثنين في بلدتهم، والآن صارت الفرق ثلاثاً. ولذلك يتطلب الأمر أن يدخلوا معًا في اتفاق يربط الجميع، ويحقق للكل الاستقرار والسلام. وأخيرًا تم الوصول إلى اتفاق وكان يقول ما معناه:

هذا عهد بين رسول الله والمؤمنين به من جهة وبين كل الآخرين (من سكان المدينة) الذين رضوا بالدخول فيه.

إذا قُتل مسلم مهاجر فديّته تُدفع للمسلمين المهاجرين، وعليهم تقع مسئولية فك أسراهم، وكذلك الأمر في كل قبائل المسلمين في المدينة فيما يتعلق بالديّات وفك الأسرى.

كل من يثير العداوة أو يدعو للخصومة والفوضى سيعتبر عدوًا للجميع، وعلى الجميع واجب القتال ضده حتى ولو كان قريب أحدهم أو ولده، فلا يحميه والده ولا قريبه. وإذا قَتَل مسلم كافرًا في معركة فإن أقرباءه المسلمين لا يُطالَبون بانتقام، ولا يساعدوا كافرًا ضد مسلم.

ولليهود الداخلين في هذا الميثاق حق المعونة من المسلمين، ولا يكابدوا الصعوبات. ولا يُعان عدوّهم ضدهم.

ولا يقوم كافر بإيواء أيّ مكّي، ولا يقوم بحراسة ولا منع ممتلكات أهل مكة، ولا ينحاز إلى أيّ جانب في قتال يقع بين المسلمين والكافرين.

وإذا أوذي مسلم وظلم بلا سبب، فمن حق المسلمين القتال ضد من اعتدَى، ولو هاجم العدوّ المدينة فإن اليهود سيقاتلون إلى جانب المسلمين ويتحمّلون معهم نفقات الحرب.

والقبائل اليهودية المتحالفة مع القبائل الأخرى في المدينة لهم نفس حقوق المسلمين، ولليهود دينهم أحرار. وللمسلمين دينهم أحرار. وما يتمتع به اليهود من حقوق فهي لأتباعهم.

مواطنو المدينة ليس لهم الحق في إعلان الحرب بدون أن يجيز الرسول ذلك، ولكن ذلك لا يجحف بحق فرد أن يعاقب فردًا قد أجرم في حقه.

واليهود سيتحملون تكاليف مؤسساتهم وتنظيمهم، وعلى المسلمين تحمل ما يخصّهم، ولكنهم في حال الحرب يشتركون كوحدة واحدة في تحمّل التكاليف.

وتُعتبر المدينة حرمًا آمنًا مقدسًا لا تُنتهك حرمته من الأطراف الموقّعة على هذا الميثاق.

وكل غريب يجيره ويحميه مواطن من أهل هذا الميثاق سيعتبر مواطنًا، ولا يحق لأهل المدينة أن يُدخلوا إليها امرأة لتصبح مواطنة بدون إذن أهلها، وكل خصام ونزاع فمردّه إلى الله وإلى الرسول.

أطراف هذا الميثاق متّفقون على مقاومة عدوّهم ولا يجوز الاتفاق مع أهل مكة وحلفائهم؛ ذلك لأن أطراف الميثاق متّفقون على مقاومة عدوهم المشترك.

المتعاهدون سيبقون متّحدين في الحرب والسلام على السواء، لا يدخل أحد منهم في سلام منفصل، ولا يسمح لطرف أن يتّخذ طرفًا آخر في حرب خاصة به.

كل من دخل في الميثاق وارتكب خرقًا له سيكون مُعَرَّضًا لعقاب الله، هو الوكيل وهو ناصر المتقين ومحمد نبيّه (انظر ابن هشام).